

ساقية الليل

حمادة حامد محمود نور الدين

في قرية «نجع الشيخ علي» على أطراف مركز دار السلام، كانت هناك ساقيةٌ خشبية عتيقة عند الترعة، لا يدري أحدٌ من بناها. يقول الكبار إنها أقدم من مسجد القرية، وإن الجدّ الأول وجدها هنا حين جاء يبحث عن ماءٍ لقطيعه، تدور وحدها دون ثور، وتئنّ في الليل كامرأةٍ تغنّي لطفلٍ لا ينام.

كان صوتها يضايق الغرباء، لكنّ أهل القرية اعتادوه كما يعتاد المرء خفقان قلبه. وكان للأطفال عادةٌ قديمة: في ليالي الصيف، حين تهدأ الأفران وتنام الأمهات، يتسلّلون إلى الترعة ويضعون آذانهم على خشب الساقية ليسمعوا ما تقول.

كانت «هدى» في التاسعة حين سمعت أول مرة. لم تكن تفهم الكلام، فقد كان مثل همسٍ في ماء. لكنها لاحظت أنّ الصوت يتغيّر بحسب من يقف بجوارها. حين وقف جدّها، غنّت الساقية أغنيةً عن حصادٍ قديم. وحين جاء أخوها الصغير، ضحكت وطقطقت كأنها تلعب.

سألت جدّتها: «ماذا تقول الساقية يا ستّي؟»

قالت الجدّة وهي تفرم البصل: «تقول ما لا يقوله الناس. كلّ كلمةٍ لا تُقال في هذه القرية تنزل في الماء، والماء يحملها إلى الساقية، والساقية ترفعها وتدور بها، وتحفظها. ولذلك لا تتوقف عن الدوران. فهي لم تنتهِ من الحفظ بعد.»

كبرت هدى، وأصبحت تحبّ الجلوس على الشاطئ الطيني في الغروب. وفي ليلةٍ من ليالي أمشير، وقد تجاوزت الخامسة عشرة، رأت الساقية تفعل ما لم تفعله من قبل: توقفت.

وفي المساءات كانت تحمل كراسة صغيرة وتحاول أن تكتب ما تسمع، فتجد أن الحروف تهرب منها كما تهرب الأسماك من الشبكة. حاولت سنةً كاملة، ثم فهمت أنّ هذه الأشياء لا تُكتب، بل تُسمع فقط، وتُحمل في القلب إلى من يستحقّها. وكان المسنّون ينظرون إليها وهي تجلس على الطين، ويقولون بينهم: «هذه بنت الساقية.» ولم تكن تغضب، فقد رأت في اللقب وعداً قديماً.

في تلك السنين كان الشتاء يطول، وتجفّ الترعة أحياناً حتى يظهر قاعها مشقّقاً كجلد عجوز. ومع ذلك لم تتوقف الساقية يوماً عن

الدوران، حتى حين لا يبقى ماءٌ في المجرى. كانت تدور على الفراغ، تحفظ ما ينقصها، وتنتظر.

ساد الصمت المفاجئ كأنّ القرية فقدت نبضها. خرج الناس من بيوتهم يتساءلون. جاء العمدة، وجاء الشيخ، وجاء الرجال بمصابيحهم، ولم تتحرك الساقية بوصة. وكانت من تحتها المياه تجري ساكنة، ولا يرتفع منها ذلك الأنين الأليف.

قال الشيخ بصوتٍ مرتعش: «لقد امتلأت.»

«امتلأت بماذا؟» سأل العمدة.

«بالكلام المحبوس. بما لم نقله لبعضنا منذ مئات السنين. لم يعد فيها مكان.»

ضحك بعض الرجال، لكنّ ضحكتهم ماتت بسرعة. نظروا إلى بعضهم ونظروا إلى الماء. وفجأةً رأت هدى شيئاً في ضوء المصباح: على سطح الترعة، تلمع كلمات صغيرة، بحجم النمل، تسبح وتتزاحم وتدور حول بعضها بلا اتجاه.

فهمت ما يجب أن يحدث. لم تسأل أحداً. اقتربت من الماء، وجثت، وقالت بصوتٍ عالٍ، موجّهةً كلامها لأبيها الواقف خلفها: «يا أبي، أنا أحبّك، ولم أقلها لك أبداً لأنني أخجل.»

التفت الرجل مندهشاً وقد احمرّ وجهه. وفي الماء، تحرّكت إحدى الكلمات الصغيرة، وارتفعت، ودخلت في خشب الساقية كأنها تُفرغ. وارتعش الخشب قليلاً.

جاءت الجدّة من الصفّ الخلفي، وانحنت بصعوبةٍ، وقالت: «يا فاطمة، لقد ظلمتك في عام الغلاء، ولم أعتذر.» وكانت فاطمة جارتها منذ ستين سنة، فنظرت إليها وبكت. ارتفعت كلمةٌ أخرى.

ثم بدأ الرجال والنساء يتقدّمون. قال أحدهم لأخيه: «سامحني على الأرض التي أخذتها.» وقالت امرأةٌ لزوجها: «لقد كنت أنتظر أن تقول لي شكراً.» وقال الشيخ لأهل القرية: «كنت أخاف الموت وكنت أعظكم بغير ذلك.» وصار الكلام يطفو من الماء ويصعد إلى الساقية، حتى بدأت الخشبة العتيقة تتمايل. ثم، بعد ساعاتٍ، سُمع صرير بطيء، ثم دورةٌ كاملة، ثم دورةٌ أخرى. عادت الساقية تغنّي،

لكنّ غناءها كان هذه المرة خفيفاً، مثل ضحكة أمٍّ تضع طفلها في سريره.

بقي أهل القرية على الشاطئ حتى الفجر، يجلسون متجاورين، وكلّ واحدٍ يحمل في صدره خفّةً لم يعرفها منذ عقود. قالت الجدّة لهدى وهي تتكئ على كتفها: «كنت أعرف أنك ستفهمين. أنتِ تسمعين الساقية أكثر من أيّ أحد.»

وفي الصباح الباكر، حين انصرف الجميع إلى بيوتهم، بقيت هدى وحدها تتأمل الساقية. رأت على خشبها المبلّل خطوطاً دقيقة لم تلحظها من قبل، كأنها أسطرٌ كتبها الزمن بأظافره. مرّرت أصابعها عليها فشعرت بدفءٍ خفيف، وسمعت من بعيد وكأن أحداً يهمس باسمها. لم تخف. ابتسمت وقالت للساقية: «سأعود كلّ مساء، فلا تتعبي وحدك.»

مرّ على تلك الليلة عامٌ كامل، ثم أعوام. صار الناس يتحدّثون أكثر، ويعتذرون أسرع، ويحبّون بصوتٍ أعلى. ولاحظ الغرباء الذين يمرّون بالنجع أنّ في القرية دفئاً غير مألوف: الجيران يتقاسمون الخبز، والأطفال لا يخافون من الأسئلة، والكبار لا يخفون دموعهم.

وسألوا عن السرّ، فكان الأهالي يشيرون بأصابعهم نحو الترعة ويقولون ببساطة: «الساقية.»

أصبحت هدى معلّمةً في مدرسة القرية، وجعلت لتلاميذها عادةً: في آخر كل أسبوع يذهبون إلى الترعة ويقولون للماء ما لم يقولوه لأحد. لا يسمع ما يقولونه سواهم والساقية. وعندما كبرت هي، وجلست مثل جدّتها على عتبة بيتها، كانت تسمع الساقية تغنّي في المساء، وتعرف أنّ القرية بخير ما دامت تتكلم.

وحين ماتت جدّة هدى في شتاءٍ لاحق، لم تبكِ هدى بصوتٍ عالٍ. خرجت إلى الترعة في الفجر، ووقفت أمام الماء الصافي، وقالت كلّ ما كان في صدرها دفعةً واحدة، بلا ترتيب: عن الخبز والأغاني والأيدي المجعّدة. ثم عادت إلى البيت، فسمعت خلفها، من بعيد، صوت الساقية يرتفع قليلاً، كأنه يربّت على كتفها.

ويقولون في النجع إنّ من أراد أن يعرف إن كان قلبه مثقلاً، فليضع أذنه على خشب الساقية. فإن سمع غناءً ناعماً فهو بخير، وإن سمع صمتاً، فعليه أن يقول ما عنده قبل أن يمتلئ الماء.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app